

محمد علي اليوسفي

رقصة الكنخرس



شعر

2012

الدار التونسية للكتاب

سلسلة مرافق الإبداع

محمد علي اليوسفي

رقصة الكنخرس

الدار التونسية للكتاب

هل جئت تسأل عني؟

لقد بيتٌ منذُ زمن؛

لكنَّ الحَرَكةَ الكامئة

في دولةٍ،

تعقبُ دولةً،

حققتُ لي رغبتِي في الحياة...

الدار التونسية للكتاب



السن: 7.000 د.ت

ر.د.م.ك.: 8 - 54 - 839 - 9938 - 978



محمد علي اليوسفي

رقصة الكونغرس

شعر

إهداء

إلى "الثورة التونسية" التي أكسبنتني حريّة التعبير عن الألم...

والآن:

من هنا يرفض الطفل المغتاط وراء الباب؟

وصف يليق بالثورة التونسية

الثورة التي ألَهَبَتْ وردة الرِّياحِ في الرَّمالِ،
ونزَفَتْ من أجلها شقيقة النُّعمانِ في الحقولِ؛

تقوِّدُها الآنَ حكمةُ القبورِ،
مالئةً رئاتنا بعجاجِ بخورٍ فاسدٍ...

الطيورُ متوتِّرةٌ تحت حفيفِ الأوراقِ،
الخُلْدُ يُوسِّعُ إستراتيجيَّةَ النفقِ،
البومُ يُعلنُ عن ميلادِ حزبه التاسعِ والتسعينِ؛
بينما من ألفِ سقيفةٍ تملو سورةُ الرَّحمنِ...

ربيع هسّ

بعد خريفٍ كادتْ تتوجّه الأبديةُ ملكًا، روعنا مطرٌ وتلج.

فانتظرنا الربيعَ منتبهين إلى ثعالبه.

أما الصيفُ فلا شكّ فيه؛

نسمعه منذ الآن يُجاورُ شجيرةَ ياسمينٍ، تعانیه:

"أنا نبتة صيفيّة هسّة؛

ربما جنّت لألطفُ نسمة صيف،

بلا رمزٍ ثقيلٍ على رنتي، يلحُّ عليّ بلونٍ جريح".

ساحبةً أعناقَ الرياح

تأتي،

ساحبةً أعناقَ الرياح،

إلى أبعد من قاماتها المرتجلة،

متحوّلةً، بطبعها، نحو ممانعاتها.

لغتها شعبٌ متجمهرٌ في الساعات،

يُعدُّ رأياً في مطاعنِ الرئاسة.

كلماتها كائناتٌ راکضة في غموض البراري.

تهبُّ المخيلةُ أصابعَ للحبالِ الساكنة،

الحروفُ نمالٌ تصقلُ دروبها،

منصرفةً إلى محاصيلها.

ما من استكانةٍ أخرى، كامنةٍ أو معلنةٍ، تراعي إيقاعَ القلب.

تشجُ العضلة هو تشجُ العضلة؛

التعب هو التعب: حاملاً طبوله ومزاميره،

أزغفته الجارحة كجذع،

صفائح المتمايلة بالسوائل،

سلا الخصار التي أنضجتها أصابع البائع،

ناهرة أصابع المشتري، بصوره اليومية في رأسه.

العجيبة وحدها تقلب السلال في مهبتها.

تعبت برصانة الشعر واهتزاز الخاصرة.

توزع الألوان في غير فصولها.

العجيبة وحدها تمر،

فيتمسك شخاذا الأسواق بنواصيها،

ويلوذ المخدوعون بطمأنينة الأسلاف.

* أعيد نشر هذه القصيدة التي سبق لي نشرها في جريدة القدس العربي، السنة الخامسة- العدد 1429- ص 6 - يوم الاثنين 20 كانون الأول / ديسمبر 1993 وكنت قد نشرت مجموعة شعرية في دمشق سنة 2008 بعنوان " ليل الأحفاد" واستبعدت منها هذه القصيدة التي وجدتتها مغرقة في الغموض! وهو غموض اتضح الآن!

جَنَانُ يَا جَنَانُ

اسْتَعْرَ الْوَرْدُ وَتَمَايَلَ الْقَرْنَفَلُ،

أَظْهَرَ الْفَلََّ خَدًّا وَأَخْفَى خَدًّا

انْتَشَرَ الْيَاسْمِينُ فِي مَرِحٍ يَحَاكِي غُرُورَ الْعَاشِقِ

إِلْتَمَّ الْحَبِيقُ، كَمَا كَانَ مِنْذُ الْأَزْلِ، فِي عَرْشِ وَقْبِيلَةَ

إِلْتَمَعَ الْمَاءُ بَيْنَ الْحَصَى وَسَيْقَانِ الْعُشْبِ...

(...)

هَلْ أَتَابَعُ الْوَصْفَ؟ قَالَ الشَّاعِرُ.

(...)

سَيَطْوُلُ الْحَفْلُ إِذَا تَمَادَى الشَّاعِرُ فِي الْوَصْفِ...

(...)

أَطَلَّ الْجَنَانُ مَطْقَطًا بِالْمَقْصِ:

" أنا الجنان قال،

لا شيء هنا سيظل كما بدأ... "

وبدأ يقطف وردة ويقلم أجمّة

يفتح ممرًا ويعلق مجرى

يبتلع لعابه أو يمسح جبينه:

" لا شيء... "

لا شيء هنا سيظل كما بدأ... "

آنَ لك أن تكفَّ يا... مطر!

أبازنا عبأت نفسها،

أنهازنا التقطت إشارتك،

دروينا ركضت بشهقاتها،

سدودنا هددت بتقليدنا،

بيوتنا فتحت مسامها،

طيورنا ما زالت تختنق بشدو محبوس.

*

بنيّة النظام المهرّب تجشأت عبر المجاري،

حلم حبة القمح، في المخزن، صار سنبلّة،

والفقير عاد إلى الصّراخ في وجه الثورة

(...)

آنَ لك أن تكفَّ يا... مطر!

كنا نشاهدهم مندفعين في اتجاه المستقبل

كنا نشاهدهم مندفعين في اتجاه المستقبل؛

نرى القتيل يسقط،

فلا نقول:

ها أنتذا تذهبُ بدمك كما فعل الأولون،

ولا نقول:

إن تَمُتْ من أجل الوطن، ترفع غيرك درجة.

*

ولأن كل شيء صار مباشراً؛

صرنا نرى الشهيد قبل أن يسقط،

والتائر الذي سوف يلاحق الحكومة الجديدة من أجل تركيب ساقٍ اصطناعية،

والأم التي ستبكي ابنها بقية العمر

وعيناها جمرتان على شاشة المنتصر.

*

اندفع الشاعر كعادته محتقياً بالترجس الطافي فوق ماء عميق،

وعدّل المغنّي في النوتة إكرامًا للمجلس،

وأخضع المفكّر واقعه للفكرة.

*

أما الوطنُ فما زال مفتاحًا في جيب الآخرين...

انتخابات 23 أكتوبر 2011

صباح الخير! قمتُ باكراً هذا الصباح، مع موتى لا ينتخبون؛ أوقفتُ كلَّ أجدادي، منذ أيام المحروسة إيالة تونس؛ أمرتُهُمُ بالوقوف، هنا وهناك، فظلوا يتفرّجون بانتظام، وبهمسٍ مرتاب، على العتبات...

الجدة والقنّاص

عُمرُ الجدّة يُخفي أكثرَ من ثمانين قنّاصًا، لا تكاد تميّزُ العالمَ خارجَ عينيها إلا ببؤرةِ ضوء. لكنها ظلّتْ تسهر الليلَ في غرفة السطح. تغافل حفيدَيها. ترفع الستارة قليلاً، قليلاً. تبادلُ العتمةَ بالعتمة. تستقصي موقعَ القنّاص؛ تقول: "أنا لا أراه"... مؤكّدةً أنه لا يراها!

رسوم متحركة

تحت أشعة الشمس، أطفال أربعة يغنون لسيارة مصفحة:

"هزبوه وقالوا: هرب!"

والمحامي الذي بشر الشعب بانتهاء الضرب ضرب!"

*

العسكر بين أعلام فرنسا والكاتدرائية، ابن خلدون قائم في كتلته، حُماة الجوار، بآليات الصفيح الساخن، يحتمون بشجيرات التمثال؛ فيما تعلقوا رايات سود، تتسلق الأعمدة، وتنزّز بالسلاسل، لتعيد تشييد السماء.

تونس

كأنها حديقة لم تعد تنمو إلا معلقةً الجذور...

تحول آخر

حتى 4 أبريل 2012

أمام عشرة ملايين سياسي، انتهى الأسياد لتوهم من تفسير الثورة. محو هالة الرمز الأفاقي الذي لم يكن ينوي البطولة، أنصفوا البطلة المضادة (وربما كان هذا من حقها) سمو الثورة باسم تاريخ الانقلاب عليها (والتسمية في حد ذاتها امتلاك) قضوا على القصبات واعتصاماتها، فلتوا الشهود، جرجروا الباكين على الموتى...

خلاً لهم الجوّ،

طاروا،

حطوا،

وففسوا...

الأسياد يُعيدون كتابة التاريخ، بعد أن فاجأتهم ثغرات ماضيهم في منعطفات البلاد.

أيها التونسي الآخر: أنا لا أثق بك!

الثِّقَةُ لا تُعْطَى؛ الثِّقَةُ تُكْتَسَبُ.

انعدامُ الثِّقَةِ ليس شراً كُلُّهُ. هو منارةُ الحارسِ الغافيِ بعينٍ واحدةٍ؛ والثِّقَةُ العمياء لا تُؤَلِّدُ إلا مُسوخًا.

*

أنا مثلك: أكره القديم، كان سلطانا جائراً، لكنني لا أثق بالجديد. فهناك من يُلدغُ من جحرٍ مرتين. والإيمانُ وحده لا يصنع المعجزاتِ إذا نامت العينُ الثانية لحارس الفنار.

لاشيء سار كما اشتهدتُ مراكبنا، مراكبنا التي انطلقت في الشتاء لتصنع الربيع حتى جرنا الصيف إلى منعطفات الخريف. آنذاك، وأمام عُتُوِّ الموج، واستيقاظِ كبارنا، وانتباهِ الأساطيل، وتصفيقِ مَنْ وصلتهم أخبارنا وراء البحار، جاءتنا المؤنُّ والنصائح، وتمكَّنَ بعضنا من محرِّكاتِ زادت في سرعة المخرِ والإبحار والحال أن مراكبنا كانت شراعيَّةً في البداية، تحلمُ بدمها دافعاً للأشعة ويزنودها العارية مولدةً للرياح المواتية.

أنت مثلي وأنا مثلك: مازلنا نؤمن بأن البحارَ تزخر بقراصنتها الجدد، وإن أحاطوا بنا في أزياء أحدث وأجدد. ولم نكنْ قد هيأنا قباطنة بحار، لطول ما خذلنا كلُّ ريس جرنا من مدننا وجبالنا وسهولنا، وعيناهُ على حاضرة مملكة تونس المحروسة، مُمسيكاً بقرن الثور في نهاية المطاف، ظناً منه أنه روض الثور، ناسياً أن للثور عضلاتٍ موزعةً على امتداد الجسم...

*

بين وبينك، ماضيكَ وحاضرُكَ، بيني وبينك ارتباكِي وزلاَّتُ لساني، استنفازُكَ وتباهيكَ، صمتي عن حركاتِ خفيةٍ، أحسست بها عندي، ولم ترها رؤية العين. ومع ذلك، كنتُ لا أثقُ بك، لكنني جالسْتُكَ وحاوَرْتُكَ، فحَفَّ حقدِي عليك، وتضاعل خوفي منك. ألم أقل لك إن اللقاء، إذا سبق محاكمة النوايا، جديرٌ بقتل المُسوخ؟

عدتُ من لقائنا، حذراً منك، وأحبك قليلاً. وفي وحدتي، ما قبل الكلام، كنتُ لا أحبك حتى لا أقول: كنت أكرهك. وأعرف الآن أننا مختلفان والدنيا منازلٌ وطبقاتٌ، صراعٌ غابٍ تتفقه الحضارةُ وتُلبسه الثقافةُ قفازاتٍ من حرير. وأنا أيضاً أحلم بالحرير. وأريد أن أفهم طريقةَ الوصولِ إليه بلا يدينِ ملطّختين، كما اتَّهمتُكَ في الماضي، وكما قد اتَّهمتُكَ لاحقاً...

صرتُ قريباً، لكنك صرتَ في متناولِ العين واليد أيضاً، وأنا مثلك بريءٌ حتى يثبتَ العكس: لن ننتظر العكسَ ولن نتحاكم انطلاقا من النوايا. كنتُ أريد الحديثَ عن الثقة فوجدت الحديثَ عن الثقة كامناً في فقدانها: ليكنِ الشكُّ هو طريقَ اليقينِ لا الثقةَ العمياء، ذلك أن الثقةَ لا تُعطَى، تماماً كما بدأنا؛ الثقةُ تُكتسبُ.

سقراط يراقب "الأغورا" التونسية

- منذ أكثر من عشرة شهور وأنت تقول لي عن الديموس التونسي إنه " شعب عظيم"، حتى أيقظتني من سمواتي؛ اسمع يا تونسيوس، ألم تذهب إلى المبالغة أكثر عندما قلت لي: "هذا أعظم شعب على وجه الأرض صقق له مجلس أعيان أثينا جالساً"؟
- لم أخك عن مجلس أعيان أثينا، بل عن أعيان الكونغرس الذين صققوا واقفين، وكادوا يرقصون!
- وما الكونغرس هذا؟
- إنه مجلس أعيان آخر، في أثينا أخرى جديدة، يا عزيزي سقراطس!
- وهل هو مجلس موافق عما يحدث في بلد آخر، بعيد عنه، حتى يصقق له؟
- قد يكون ذلك، لكنني مفجوع من شعب جاهل...
- أنت تناقض نفسك، يا تونسيوس!
- كلا، بل أفقت من غيبوتي على حقيقة أخرى...
- والشعب؟ لعله فعل ما فعلت؟ فكيف تفعل مثله وتصنف نفسك في سلم أعلى من البهائم؟ البهيمية عندك مزدوجة، يا تونسيوس، فكيف عساك تتحدر من سلالة بشر، يراوحون بين البشر والبهائم في نظرك، وتظل بشرياً؟
- نحن في الشهر الحادي عشر بتوقيت "الأغورا" التونسية، قال تونسيوس. وكل الأفكار التي تجولت بها في هذه "الأغورا" لم تتفع يا عزيزي سقراطس... شعب جاهل... شعب بهيم...
- وهل مازال إبداء الرأي عندكم يتوقف على الأعيان، كما في أيامنا، يا تونسيوس؟
- أجاب تونسيوس، راسماً برأسه دائرة في الهواء:

- لا يا سيدي، كل الناس متساوون، حتى إن صوت فيلسوف يعادل صوتَ مرتبةٍ أو بائعِ جلود.
- في هذه الحال لا يبقى من فارقٍ إلا قوةُ التأثيرِ بالعقل، قال سقراطس، مندهشاً. فكيف أعملتَ عقلك في الأغورا التونسية؟
- يبدو أن كلَّ ما قلته في المنابر، وأذعته في الصناديق الناطقة، وصحتُ به في المرايا العاكسة التي حاولتُ في السابق تفسيرها لك، لم ينفَع يا عزيزي سقراطس !
- كيف؟
- خذلثني العامَّة، يا عزيزي، حتى إنني أمسيتُ أترحمُ على أيامكم!
- حكَّ سقراطس حاجبه ونظر إلى تلميذه تونسيوس مبتسماً:
- اسمع يا تونسيوس: التَّسميَةُ هي سَعْيٌ إلى الامتلاك، وأنت الآن تسمي شعباً بأكمله بهيماً، والحال أنه أصبح "ديموس" في زمانكم. هذا التناقض يؤكد أنك تعاني من أزمةٍ هضمٍ لتطورِ اللوغوس!
- كلا، لكننا نخشى الشعبوية!
- في هذه الحال، هل تستطيع العودة إلى أحكامِ أثينا؟
- لا يمكن!
- إذن، عليك أن تشغَلَ اللوغوس يا عزيزي تونسيوس.
- بأيِّ طريقةٍ؟
- ما دمتم قد أعلنتم المساواة، فإن الكثرةَ ستكون تلك المستبعدة من ساحاتِ أثينا: الشباب والنساء والغرباء والفقراء والأهواء.
- وذلك هو ما حدث، يا سيدي.

- الجمهور هو القلب السياسي والاقتصادي لمدينة الديموس، يتجمع المواطنون في ساحة "الأغورا" لممارسة السلطة بشكل مباشر.

- وكيف يجتمع الجمهور كلُّه، وأعدادنا لم تعد مثل أعدادكم؟

- إذا لم يجتمع الجمهورُ كلُّه معك، ومع رفاقك، فعليكم أن تجتمعوا كلُّكم معه.

- سوف نرى كيف سنتمكن من ذلك يا معلِّمي...

- عليك أن تصحو مرة أخرى من غيبوبتك وسوف تجد نفسك أمام حقيقة أخرى؛ فالبشري لا يتحول إلى بهيم إلا في الكهف الذي تتراءى لك فيه أشباح اللوغوس فتجعلك تسقط في فخِّ تناقضٍ جديد.

*

شَخَصَ تونسيوس بعينيه، ثم طأطأ رأسه مفكراً دون أن ينظر إلى سقراطس. فالتقط سقراطس أطرافَ عباءته وقال مودِّعاً تلميذه تونسيوس:

- تحدَّثنا اليوم عن خطأ جمع الشعب بصيغة المفرد، وتحويله إلى بهيمة؛ وغدا سوف نتناول تسلُّطَ فكرة الفرد، لمواجهة الكثرة، وخطورة الكثرة على الفكرة المتسلطة وغير المقنعة بالجدل، وكيف أن القوة لا تصنع العدل، كما أُشيعَ في أثينا التي دفعت بي إلى تجرُّع الكأس...

بضعُ أغنياتٍ مُسيلةٍ للدموع

تقدّيس الغياب

الآن وقد مرّت بنا كوكبةٌ جديدة، تلتُ كوكبةَ المناجم؛

نستطيع الجُزم أنهم يمضون في دمائهم،

ولن يُكفّنوا بالقداسة إلا بعد جيلٍ أو جيلين،

حتى يموتَ القادةُ المتوفّرون،

وينتهي الآباءُ من تهرئةٍ أعجازهم على الكراسي،

بعد أن يُخفّفَ الغيابُ من دنسِ العاديِّ؛

العاديِّ الذي رأيناه يسقط كما يسقط قتلى بلا فكرة واضحة.

(...)

بعد أن تكفّفَ عيونُ الغائبِ وأهله عن لوم الأحياء؛

فيعود الأحياء إلى تقدّيس الغياب.

(...)

هذا ما خبّرتهُ أيضا من مصير الشعراء.

مهاجرون

أورثنا أبنائنا وطناً، استقلّ به الطغاة بعيداً عنا؛

لكننا لم ننجح إلا في نزع القشرة التي أرادوا منا أن نسميها وطناً.

أخبرنا، يا جيلاً هتف في الساحات، ولونَ جدران القصبَة بالحلم:

أما زال هناك من يحرقُ برّاً، ومن يحرقُ بحرّاً، تاركاً أحلامَ الساحاتِ لجيلٍ جديدٍ يترصدُ الطغاة؟

ابنتي

مازلتُ أتمنى ألا أخاف،

لا

منك،

ولا

عليك،

عندما أراكِ تقتربين من فوضى الحرّية مثل فراشة.

أوكسيجين

جعلتُ من كلمتي تمريناً للتنفُّس،
ولم أجعلها آخرَ طعنةٍ للمنتصِر؛
تركتُ فرحاً راكداً تحت أحزانِ الثورات،
لأواجهَ غازاتهم،
وأحمي شرابينَ القلب.

كُنْتُ مِثْلَهَا؛ وَطَنِي تَحْتَ جَنَاحِي...

شام 2005

(تأويل)

ياه!

ها قد عدت إلى القول الجدّي؛

مُفَرِّاً أن الشام "هي هي"!

شامُ الله الأقدم،

فُذَّتْ من حجرٍ دهري،

يضمُرُ باطنُ تربتها أكثرَ ممَّا يُبدي.

*

لا تتسرّع في استعداد المظهرِ مَبْدَا

شأنك لما تزعم حباً أول؛

فهنا؛

لا أول...!

إلا من ركض وحده!

بكائيات شبيقة

أطلت علينا من صوب الشرق؛ ربما من سهل البقاع، أو إلى الشرق قليلاً، ربما من سوريا، غيمةً مكتنزة. لم نُعزها في البداية عنايةً تُذكر، وإن كان اقترابها لم يحدث من دون إشارة منا. هكذا ظلّت تتفصل عن كُنتها، وتتخلّى، رويداً رويداً، عن الانسياق مع كثافتها، في حركةٍ تسرق تأرجحها الخفيّ نحو الهبوط كما قد تفعل كلُّ قبيلةٍ في الأرض، أو أيُّ سربٍ في السماء. في البداية، استجابت لها العين، باختلاساتٍ موزونة، لأنها قد تُمطرُ عندنا، فكان رفيفها ممهداً لاستجابة الجسد؛

(...)

بين المناورة والانتظار تبألت مضاجعنا.

هنا الشامُ ترفس في بطنها القدمُ

أجملُ الغرباءِ يجيئون من سوريا،

أو يظلّون في سوريا، قومها الأولين.

كلُّهم رفعوا شُرْفَتِي...

*

أجملُ الكُردِ في سوريا

حين تنفخُ رُوحُ أزاوي

على قصبِ الجُفجُفِ المُرْتَوِي،

أو على جمرةٍ من جنونِ عامودا،

*

أجملُ الوقتِ عيدُ يزِينُ برُشِينَ أو بابَ توما،

أجملُ القادِماتِ السويدياءُ حين تحلُّ ببيتي،

أجمل الساحراتِ هي اللاذقيّةُ مبلولةُ الشّعِرِ والحاجبينِ،

أجمل المستغيثاتِ طرطوسُ في رعدةِ الميحنَا والعتابَا؛

فمن أيّما رغبةٍ جبلَ الله طينةَ حمصٍ،

وضحكةَ حمصٍ،

وجارتها في فطور الصباح؛ حماة؟

أما زلتَ تذكرُ تلكَ العجوزَ، يؤرّقها فارقٌ بين ماعزٍ درعا وتونسَ؟

أيامك المستظلةُ بالشام؛

لما بدأتَ تجاوزُ لكنتها في العشيّاتِ، بين " زمكًا"، و"جوبر"

والمشمشُ الغرّ، من غمزةٍ، يُعلنُ النضجَ بين يديك؟

أتذكرُ كيف تعلّقتَ باسمِ الفقيرةِ: دارياً؟

فاستشاطتَ دمشقُ؟

*

أين جسمُ الملاكِ الذي طار من قاسيونَ إلى النلّ،

كي يتبخترَ في الصالحيّةِ بين المرايا؟

فكدتَ تطيرُ بكأسِ عرقٍ،

غيرَ أنك طمأننتَهُم: لستَ طيراً ولكنه بعضُ ريشِ نطقٍ!

*

أينهُ؟

أين وردتْه؟

حين يجدلُ من روحِه سوريا كلَّها،

ويُدخِرُجُها فوق نَوَلِ حَكَايا:

"بلادُ الكمالِ يسيِّرُها النقصُ في كلِّ شيءٍ؛

بلادُ ندَى الياسمينِ تلوِّثُه دكنةٌ في العشَايا،

بلادُ يميِّزُها، نهزُها، هارياً،

ماؤها، نازها، نورها...

روحُ غوطَتها في أزيزِ الأثاثِ تحسِرُجُ عند الزوايا".

*

كلُّهم سوريا:

الأصيلُ، الذليلُ، الجميلُ، الرذيلُ، القَتيلُ وقائتُه؛

كلُّهم يُقبلونَ ببندبةٍ وشَمٍ على جسدي، أو... بذاكرتي.

*

كلُّهم سوريا: أستجيزُ بحاضرها فأرى أمسها سابقاً ما تلاه،

كلُّهم سوريا: جرحُ روحي تَبَلَّسَمَ من جُرِحها فشفاه،

كلُّهم سوريا: بعدَ ذلِّ مساومةٍ في الحدودِ، على واجبِ وطني، أساكنُها كالحبيبِ،

كلُّهم سوريا: باشتعالاتِ وِرداتِها، وبما في الضواحي يزنُرُها من شقاءٍ؛ وها مثلُ: (هاهنا الشامُ ترفسُ في بطنها

"الْقَدَمُ"!) *

كُلُّهُم سوريًا: لا تكلِّها في المواعيد إلا المآثر والقمم،

كُلُّهُم سوريًا...

كُلُّهُم

... مِنْ هُنَا نَزَّ هَذَا الدَّمُ!

* القدم: إحدى ضواحي دمشق الفقيرة؛ سميت بهذا الاسم - وفق معتقد شعبي - نسبة لوجود صخرة في مسجد القدم الكبير عليها أثر يقال أنه لقدم الرسول محمد (ص)

سامراء

في سامراء، أحفادُ يناوشون جذعَ الجدِّ؛

تسلقوا الملوّبةَ الحلزونية، صاعدين إلى سماءٍ أخرى، شاهدوا بركةَ المتوكّل: (صار البُحْثريّ قزماً على أبواب الممالك؛ ربما لم يسمَحْ له الخليفةُ إلا برؤية الماء، فقال عن البركة إنها بحرٌ بعد البحر)...

كانت حُجرات الحريم تتنفس كتاباتِ العشاق الجدد.

*

الأحفاد نزلوا أكثر، عبر ردهاتٍ وسلالمٍ ونقوش: قنوات الماء متدفّقة تحت القصر، الآبار الأربع أعمدة مائية في كل زاوية، كأنما لترفع القصر، مزيدةً بمياهها نحو جفاف الحاضر.

*

الأحفاد زادوا في الانحناء: سمعوا صلصلةً أسلحةٍ وعساكر يصعدون من دون سلام، يأتون من طابوق التاريخ المشويّ إلى فتحات الآبار: جنود عتاة في منتهى الغرابة، يتسلقون الجدران الداخلية بمثابرة النمل، ينزلقون، فيعيدون الكرة...

*

الأحفاد غادروا القصر محاذرين السقوط في بؤرة الأسود، كان الحراس آنذاك مشغولين بالمتوكّل، وكان المتوكّل مشغولاً برفع المظالم في جناح النساء.

في ربيع بعيد

أطلَّ ربيعٌ قديم، تباشيرُهُ لم تجئنا بيُسْرٍ، فُبَيْلَ انقضاءِ السّونو بضوءِ الأعالي، لثُرْبِكَنا بجفونٍ مطوّقةٍ
بنذيرِ المطرِ
تراءى لنا الفصل هشّاً، إذ اغتيلَ نبيّاً... وكانت دماءُ الشبيبةِ أولَ ما يقصد الفصلَ، حتى إذا سقطوا في
التلالِ البعيدة؛ ظلّتْ ظلالٌ لهم تتحدّرُ...

صديق أيقظني من ليلتي فجرًا

قد لا يكون مَعْنَمٌ يَنصَافُ في ذِكرِ اسمِهِ، لأنَّهُ، كغيرِهِ كانَ، ووفَّقَ كلَّ موقِعٍ، يَعدُّ الأسماءَ...
لكنه أيقظني من ليلتي فجرًا، لكي أذكره بأخر اسمين له: مهذد، ثم علاء؛
لما تصاعد الحصار بالغا أبوابنا، شدَّ على رشاشه وقال لي:

- أراك لا تجيء؟

ثم أفلت ابتساماً مكتومةً (فهمتها: أراد أن يُخرجنني!)

- أراك لا تجيء، هه!

أحبته مرتبكا:

- كلاً، أنا باقٍ. قتالنا، كما اعتدنا، إلى شهادةٍ أخرى. أنا باقٍ بهذه الحياة، لا أرى لي غيرها...
ودعني "مرتجفين": هو - في داخله - (حسب اعتقادي) وأنا - في الجهتين...
ربما سمعته يهذي وراء الباب:
- من أجلك... أو... مُدافعاً عما تخالهُ الحياة...

سار بالرشاش والمسدس،

فيما لزمته البيت كالمختلس.

وكان أن شجَّ على منحدر الوادي، ودوى معه موتٌ كثير.

.....

بعد كلِّ هذه الحياة خضَّ ليلتي يوقظني فجرًا:

فمن منَّا الذي قضى؟ هو الذي مضى وغاب في الأسماء، أم أنا الذي أذكرها، متابعا ما أدعيه بعض عُلمي
من حياة، راح من دافع عنها، قابرا أسماءه، مكفنا في لقبٍ مقدس؟

لاجيء

"أبو حرب" مات، و"أبو طماعة" بُعِثَ. أما "الكركدنُّ" فقد سقط واقفاً. شَمَتَ الخائفونَ بعيونِ نصفِ مغمضةٍ؛
"رام الله" تحت مستوى بحرَيْن؛ أحدهما السماء. أما "غزة" فقد أودتَ بها السيول. أنا قَشَرْتُ التجربةَ كُلَّها،
فظلَّ سؤالٌ يُورِّقُنِي: مازال في العمقِ من ذاتي، في صمْتِي الآخر، لاجئٌ أخير.

المتوسط

هوذا الوسيطُ السيِّء؛ بحرُّنا العجوز: لم يعد يتوسَّطُ إلا الجغرافيا.
ما زالتْ قرارَةُ الموجةِ تستقبلُ العبيد:
لكنَّهم، اليومَ، يتطوَّعون في قواربِ الموتِ صارخين: أين النَّخَّاس؟
أما القراصنةُ فينزلون،
لكنُّ...
في اتِّجاهٍ واحد.

عولمة

حماري يُرْخي أذنيه، يلهثُ تحتي.
دَبْرَتْهُ نَوَّارَةٌ فِي الشَّمْسِ.
أُنْثَاهُ فِي حَقْلِي،
وَفِي طَرْفِ عَصَايَ: إِنَاءٌ مَائِهِ الْيَوْمِيّ... وَمَخْلَاةُ الشَّعِيرِ.

الجهة الأولى للقلب

عبث

قَلَبْتُ أَرْضِي الصَّيْفِ خَلْفَ وَثْبَةِ الْجُدُجِ، غَيْرَ عَابِيٍّ بَتَسَلُّ الْجُغْرَافِيَا إِلَى أَكْيَاسِ الْحَصَادِ. تَأَلَّفْتُ مَعَ اسْمِي الَّذِي بَارَكَهُ جَدِّي حَتَّى بَتُّ أَعْبْتُ بِالْأَسْمَاءِ.

أَحَبُّ مِنَ الْأَسْمَاءِ آذَارُ. وَهُوَ إِلَهٌ أَخْضَرُ. لِذَلِكَ لَا أَكْرَهُهُ إِذَا صَارَ مَارِسٌ، سَمَّيْتُهُ الْفَارِسَ، مُقْبِلًا مِنْ جَوْقَةِ الْحَرْبِ أَوْ مِنْ ذِيُولِ الشِّتَاءِ.

أَنْحَازُ إِلَى أَبْرِيْلِ. أَطِيرُ مَعَ أَيَّارٍ. أَتَبَاطُأُ مَعَ حَزِيرَانَ. يُدْهَشُنِي تَمُوزُ. أَنْأَدِي أَغْطُسُ. وَلَا أَنْكُرُ أَبُوءَ آبٍ.

لَكُنْ، أَيْنَ هُوَ الْمَدَلُّ اللَّعُوبُ؟ انْقَدْتُ إِلَى أَبْرِيْلِ فَأَلْفَتَ مِنْ يَدِي نَيْسَانَ. كُنْتُ قَدْ انْحَزْتُ إِلَى أَبْرِيْلِ بِسَبَبِ امْرَأَةٍ. بَقِيَ سَبْتَمْبَرٌ؛ لَهُ عِنْفَوَانٌ فِي تَدْحُرْجِ الْحُرُوفِ.

أَقْتَرَبُ مِنْ تَشْرِينَ الْأَوَّلِ. أَرَى دَمْعَةً عَلَى خَدِّ جَدِّي. سَمَّيْتُهُ أَكْتُوبِرَ. وَأَحْتَارُ أَمَامَ تَشْرِينَ الثَّانِي: كَأَنَّمَا أَكْتُوبِرُ الْأَوَّلُ أَكَلَّ أَخَاهُ!

يَجِيءُ دَيْسَمْبَرٌ فَإِذَا هُوَ كَانُونُ أَوَّلٍ. وَلَا أَجِدُ كَسْتَاءً. أَوْجَلُ كَانُونُ الثَّانِي، وَأَنْتَاسِي شَبَاطُ: ذَلِكَ الضَّالُّ أَبَدًا؛ لَا يَعُودُ إِلَّا وَهُوَ يَقْضُمُ حُرُوفَ اسْمِهِ. وَالْآنَ،

هَآنَذَا أَوْقَدُ نَارًا فِي مَوْقَدِ كَانُونِ الْأَوَّلِ. أَشْوِي عَلَيْهَا تَعَاقِبًا لَزِجًا: جَانْفِي، فَيْفِرِي، أَفْرِيْلِ، فِي إِهَابِ حُرُوفِ تَنْتَلُ لَغْتِي: مَآي، جَوَانَ، جَوِيلِيَّة، أَوْت، قُبَّرَةٌ تَمُوتُ. فَأَيْنَ أَضَعُ نَوْفَمْبَرٌ؟ أَضَعُ قَدْرَ الْمَاءِ عَلَى مَوْقَدِ كَانُونِ الثَّانِي. أَسْلِقُ الْأَلْيَافَ فِي اسْمِ فَيْرَايرِ، أَحْتَفِظُ بِمَرُونَةِ يَنَايرِ، وَإِلَى الْقَدْرِ: مَآيُو، يُونِيُو، يُولِيُو!

فِي الْحَرْبِ كَمَا فِي السَّلْمِ، لَمْ نَخْتَلَفْ حَوْلَ مَارِسِ. أَتَوَقَّفُ عِنْدَ أَغْطُسِ. أَحْتَفِظُ بِأَسِنَّةِ جِرَابِهِ مَجْلُجَةً بِحُرُوفِهَا، فِي سَلَّةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ لُيُونَةِ يَنَايرِ. وَأَخِيرًا، نَوْفَمْبَرٌ: إِلَى الْقَدْرِ مَعَ إِخْوَتِهِ!

*

تَعْمَزْنِي أَسْمَاءُ أُخْرَى. فِيهَا رَبِيعٌ أَوَّلٌ. وَفِيهَا- يَا لِّلْسُلُوى!- رَبِيعٌ آخِرٌ. أَغْنِي لَهَا أَغْنِيَّةً شَتَوِيَّةً " يَا لَيْتَ الرَّبِيعَ يَعُودُ يَوْمًا... " يَعُودُ؛ فَلَا أَعُودُ إِلَيْهِ.

هي من غابة إلى غابة وأنا معلق في عروة الثورات

هي من غابة إلى غابة وأنا معلق في عروة الثورات. أحيانًا تلوح عبر حقول حليقة، هاربة من الاحتراق إلى ذاكرة خضراء، وأنا أحصي خسائر تركها فرسان أنفاسهم في الأرض وخطوهم في السماء.

بإسوار من ذهب، وتحت كثافة الشجر، تحاذي نوم الأفاعي في رطوبتها؛ فلا تدخل غابة إلا وتثمر يدها في كوخ يطوقه الفطر مقعدها ومقعدني؛ تجلس في الأول وتهمس لي.

جاءني منها خبرٌ وهي في حقول الشمال:

" حتى أصير في الجنة حقا: أنتظرُ قدومك في هيئة آدم، ولا تتعظ: من أجلك سوف أقضمُ التفاحة، مرةً أخرى، ونهوي... "

التَّرْعَلَّةُ التي في قلبي

لي تِرْعَلَّةٌ يفيضُ بها قلبي. بدائيَّةٌ لم يمَسَّها قفصٌ؛ تخفق في كستائها؛ تغمز بقلادةٍ. تتدرَّج في الرُّعْبِ ولا تغادر الأبيض. على جفنيها من رحلاتها قطرةٌ من كلِّ فصل.

أنا الزائر الذي سعى إلى ما مضى، على إيقاع ما همست: "شباكك لن تتألني إلا بين جبلين، ينشقان".
أقول: "تِرْعَلَّتِي!" فيهطلُ رذاذٌ، تشقه صبايا مُورِّدات، لهنَّ رجفةٌ في النُّهود، يُوثِّقن لقلبي شريطَ الصُّور.

جبال الدنيا

كنّا نرعى قطعانَ النشأةِ لما طلبتُ مني أن: " اذهب من أجلي؛ عدّد كلَّ جبالِ الدنيا؛ جبلاً، جبلاً... " و...
" سأعطيك الريح... " وأعطتني الريحَ حصاناً، والبرقَ مداداً.

لم يكُ لي من رُوحٍ غير لساني...

*

غبتُ، حضرتُ العالمَ في التّطوّفِ، طعنتُ طواحينَ الريحِ، وسمّيتُ لها كلُّ نتوءٍ فاقَ الأرضَ... تأملتُ الخيبةَ
في الذروةِ، هرولتُ إلى أكثر من سفحٍ، فاجأني صوتُ جموعٍ: " عاد الكيخوتة! عاد الكيخوتة! "

*

لما عدتُ،

أنتُ لتصدّقني،

خاطتُ كلَّ جراحي تسائلني:

" لمَ تشعرُ بالخيبةِ يا أنتَ، وقد عدتُ... وسمّيتُ!

لك صدري متكأً؛ لك في كلِّ نتوءٍ سمّيتُ

ملاذُ حرييرٍ وأرانكُ يَشِبُّ تتلاً في همسٍ وتناديك للبيت".

24 أكتوبر 2010

الكرمة العاشقة

كرمتي التي تُبْرِقُ بنبيذٍ عناقيدِها قبلَ أن تُعَصَرَ، أكسبتني من قيلولَةِ الزيزانِ طبيعةَ النُّحاسِ، غطَّتْ لياليَّ،
سكرى بصحوي، نشوى بإيقاعي. تناديني إلى سريرٍ من طبيعةِ اليشبِ حين يعرق، تهيئه أوراقها المفتولةً للشدِّ
والهزِّ، لتكون منذ أن وُزِعَتِ الأدوارُ، منذورةً للربط...

يبليني غيمٌ تناديه، ونسيماتٌ تواريه؛ فأنسى قطعاني في مراعيها.

طيورها أوراقٌ تحليقٍ بألحانٍ، أوراقها تهمس ولا تطير.

أعيدُ سقياها بنظرةٍ نسرٍ، هاديٍّ، يستكين بعد قنص.

لا أرى الماءَ في داخلها فتلمسه بدلاً مني، فيما أستلّ منها الحبةَ الأنضج.

أحسُّ بهزةً ساقها في جذعي "أهذا دبيبُ الحبِّ؟" أقول،

فتميل بعنقود:

"بل هبةٌ للساهرِ في بيتي... لا تعادلُ نصفَ آهةٍ في صدري!"

سكنتني؛ لأعيشَ ما تبقى آهتني من صدرها... في صدري.

التي تشقّ الليل

تشعُر أنّ همساتِ آخرِ الليلِ مجنونةٌ
تُسكِرُ أكثرَ ممّا تدّعيهِ وشوشاتُ النهارِ؛
ونقول إنّ الليلَ أفضلَ، لكنه لا يخجل.
ترتدي ثيابًا سوداءَ عمدًا،
حتى ينشقَّ صدرُها مع الفجرِ عن فجرٍ...

أنا في الخريف

أنا في الخريف؛ وبقية الألوان أنتِ...

كلما حلقت فوق الذرى والجبال،

فتحتُ عيناً واحدةً، لأبحث عنكِ؛

أنتِ رُوحِي الهائمة،

وأنا، هنا، جسداً يتذكّر.

في انتظاره...

تستطيع أن تتذكّر نسائمٍ عشيةٍ على سنابلٍ نائيةٍ،

قطراتٍ أولىٍ تنيرُ غبارَ دريٍ،

أو في زاويةٍ من ماضيك، تطفحُ بها جرّةٌ ملى،

أو بعد قليلٍ سيتلألاً بها شعرها في المساء...

ذاك ما أودُّ أن أوصله إليك:

فرحٌ يتموجُ منك باتجاهٍ البعيد

أو يأتي من البعيد إليك؛

لكنك في الحاليتين تحسُّ به ولا تراه؛

فرحٌ غامضٌ، ساكنٌ في العمق؛

به العينُ تُدركُ، ولا ترى.

فرحٌ غامضٌ، له تردُّدٌ زخّةٍ موشكة،

يبحثُ عن مكّأ،

عن عشبة،

عن قشة،

عن إبرة،

عن...

(...)

يسحبُ الماضي

ويفرز ما يلمع فيه وما ظلَّ صدى...

فرحٌ غامضٌ يريد مرتقىً للآتي،

وقبل المرتقى،

يبحث عمّا يُخرجه خفقةً من باطنِ جدولٍ، أو روضةً من بركةِ عينٍ،

فرحٌ غامضٌ ينسج من الصمتِ، ومن روضةِ الخوفِ، موعدَ القلبِ بالقلبِ،

والريحِ بالسَّروِ،

فرحٌ غامضٌ، ساكنٌ، في هذه العشية التي تبحث عن اسمٍ وعمّا أضعته سدى...

فرحٌ... يريد أن يكونَ... ولن يكونَ، إلا إذا...

المرأة الشجرة

(إلى علي مصباح، بمناسبة صورة)



مازلت أستغربُ من كلِّ شجرةٍ تسعى إلى تقليدِ المرأة؛

ربّما لأنَّ أصلَ المرأةِ نبتةٌ في خريفها الأخير،

تترك بذارها في الأرضِ مستعيدةً حياتها في السماء...

أو

ربما لأنَّ للرجُلِ فأساً، عليها صدأُ الكهوفِ الأولى، ترى اللحمَ في كلِّ مكان...

إيروس في الصحراء

قالت المرأة القادمة من الشمال، وقد حطت على ركبتيه، إنها تربط، في صحراء الجنوب، أرجوحة بين نخلتين.

أمعن صعوداً في شمال الشمال، حتى بلغ سرّ الجنوب.

لها أثر من وجع أسفل الشفة السفلى

(مسودة حلم)

بيضاء؛ قادرة على ألوانٍ أخرى. شهوتها على حافةِ الدمع؛ يهزها خوفٌ بدائيٌّ.

حضورها بين يديّ؛ يكاد يطير.

المخبأ

في كلِّ بيتِ بؤرةٍ مضيئة،

في مخبأٍ غامض،

يعرفه صاحبه، ويتخيلُه زائرُه...

*

(في كلِّ بلد...)

*

تظُلُّ البؤرةُ تضيء،

ويظُلُّ المخبأُ غامضاً،

حتى يأتي سلوقيُّ الذهب...

ثمار الحديقة

منذ أن ماتت أمُّها، وثمارها، منذ أن مات أبوها، في أيِّما حديقةٍ، مبيتةً على أشجارها.

عذراً

عذراً.. لا يُمكنك إرضاعُ طفلكِ،

في هذا المكان:

فرؤادُه مسلمون.

زخة مطر

قلتُ ما لا أصدِّقه لرسولِ عبْرٍ،

قلتُ:

" مُرَّ على بيتها في البعيد، وبلَّ نوافذها، يا مطرُ!"

وإذ فتحتُ، في الصَّبِيحَةِ، شُبَاكَهَا،

فاجأتُ وجهها زخَّةً تنتظرُ.

حلمتها

حلمتها بين يديّ... حالمٌها.

عاتبٌها؛

قالت أحرني البطّ...

لم أفهم،

لكنني قلتُ: " هذي أولُ امرأةٍ يؤخّرها البطّ..."

ضحكة الفيقب، وقصائد أخرى

لا نعرفُ الفيقب،

ولا نكاد نسمي الشجرَ البري،

لكنّ، بيننا، مَنْ يستطيعُ مُحاورَةَ زيتونَةٍ،

أو إلقاءَ تحيةٍ على نخلة،

ولو بطرفِ عباءة.

ننتحل اسمَ الكرمِ للتينة كما فعل الأجداد،

دون أن نفهمَ أسبابهم،

ولنا مع الرمّانة مقالِبُ،

حتّى لَنكاد نقارنُ شراستها بالزعرورة،

ليس بسبب الشوكِ وحده؛

فكلتاها محرابٌ للبومة.

أما السّفرجلةُ فهي نحنُ حقًّا:

تمامًا كما كنا، قبل تدفُّقِ السّماد،

وقبل أن يستجلبَ شعراءُ الحداثةِ شجرةَ اليوكالبتوسِ إلى قصائدهم

كي تجاورَ ضحكةَ القيقب

في لقاءٍ عاجلٍ بين قصائدٍ أخرى.

رُمان

كلّما فرّكتُ رماناً،

حضر الأموات؛

أولئك الذين فرّكوا الرّمان،

وسمّوا لي تراحم الحبيبات الحمرِ ديكاً،

وكلّ ثمرةٍ تعفّنت من الداخل، رماناً عاشقة...

كلّما فرّكتُ رماناً

حضر الأموات،

تتوسّطهم

صامتةً، كعادتها، أصابعُ أبي...

ايروس شيخًا عائداً

حين تعصفُ بها الموجةُ الأعلى،

"يموتُ طرفُها، حتى يصيرَ مثلَ عينِ اليربوعِ، كأنَّ بها وَسَنَةً " !

هكذا قال عنها الشيخ وهو يعود إلى صباه.

المقبرة البحرية

(مقبرة المهديّة)

بين أسوارٍ للفاطميين أتى عليها الموجُ والزمن، ومبانٍ للأحياء مكتظةٍ بالعيش، وفي صُلب الزمن؛ تشرق المقبرةُ الأجل؛ ترسل بياضها للأزرقين: البحر والسماء... لكنَّ الشمس تجهد لمحوِ الأشكال، حتى لتكاد الصورة تأتي بالقبور صخورًا بحرية!

أكانَ لا بدَّ من صُورٍ في الظهيرة؟

هكذا تحولت القبورُ ورائي إلى كتلٍ بيضاء أشبه بالحجارة، فيما كنت أدير لها ظهري (ولو مؤقتًا) ، مشيرًا، بسبابتي، إلى الحياة...

مقبرةُ المهديّة تذكّرنا بالموتِ فتزیدُ من ألقِ الحياة.

لكنَّ الذاكرة تسحبها بقوة ... إلى أين؟

لا إلى الحياة،

ولا إلى الموت؛

بل إلى ما يُكْتَبُ له الخلود بينهما؛

ذلك الذي يهزم الموتَ حتى وهو يغادر الحياة،

مخْلِداً تغريبةَ الفاطميين مرّةً،

ومقبرةَ بول فاليري البحرية مرّات!

* كُتِبَتْ هذه القصيدة بعد زيارة لمقبرة المهدية، وقُرئت لأول مرة، مع ترجمتها الفرنسية، قبالة مقبرة بول فاليري البحرية، في زورق رواده من النساء (ما عدا الشاعر والريان!) خلال مهرجان " أصوات المتوسط" الشعري في مدينة " سيت" الفرنسية صيف 2010

منحوتات الجنرال البرمائية

في البداية ونحن نقطع الطريق صوب البحر، أشار صديقي إلى بعض الصّوى، وقال لي: "إنها من بعض أعمال الجنرال؛ لكنه لم يُبَوِّها، ولم يجعلها في سياقاته..."
ثم غدّى الخطى باتجاه البحر بعينين لامعتين وكلامٍ سريعٍ يميّزه.

على الشاطئ المسيّج بالصخور أشار إلى كتلٍ تخرج قليلا من الماء...
شعرتُ أنني أعرفها من قبل؛

(كان المشهد يبدو - ويا للمصادفة! - أقرب إلى حقل بطاطا فاجأه مطرٌ غزير)

تقدّم في الماء وصار يُزيل عنها الرمل والأشنان وما تراكم في غيابه.

لاحثٌ تماثيلٌ قصيرة ترقص هادئةً في حركات متموجة.

كانت أبعد ما تكون عن أحصنة البحر،

وأقرب ما تكون إلى جمهرة من كائنات موديليانِي.

أطال مداعتها بحنان وهو يبتسم...

وبقيت أراقبه من بعيدٍ متشككا في إمكانية نقلها معه إلى البرّ؛ حيث يعيش،

بعد أن قرّر ضمّها إلى أعماله الأخرى، دون أن يُقنعني بأنها برمائية.

(...)

لا أدري ماذا حصل بعد ذلك؛

لأنني أفقتُ من الحلم ... متعبًا غموضَ الجنرال.

ليلة يدك

انفلاقُ الربيع يدقُّ على النافذة...

(...)

غير أن الرّعد، بطلقةٍ فاقت حدودَ التوقُّع، أفسدَ كلَّ شيء؛

... ابتداءً من نعومةِ المعصم.

ما تأخذه بين يديك يدوم

ما تأخذه بين يديك يدوم: وسيان إذا درت بمحوره دون السرّة أو أنشبت به أظفارك خلف الظهر نزولاً، تكشط أضلعه، أو حمت بقبته كي تتصلب بين يديك؛ فما تأخذه بين يديك يدوم: بنفسجة، ذهب، تفاح، سنبله... كفنّ تحضره لتخيف الخوف فتزجف أنت، ويحضر حسون يرجف بين يديك، فما تأخذه بين يديك يدوم: سؤال، سلطان، آثار عصا... أو حتى بعض خواء لا تنفك تقلبه وتوسعه بين يديك؛ فما دمت تضم يديك عليك، على وهم وجود فيك، تدوم...

طائرُ الصوت

ما زال على كتفي طائرٌ يصيح: " هذه مُدُنٌ نُضَيِّعُهَا وتبقى."

تكوينات

الرُّمَانَة

في البدء لم تكن الرُّمَانَةُ... فُنُبَلَةٌ؛ أَمْسَكْتُ بِرُمَانَةٍ وَقَلَّبْتُهَا عَلَى كُلِّ وَجْهِ:

(بَيْتٌ أَمْ عَشٌّ ؟)

(نَدْيٌ أَمْ سَرَّةٌ ؟)

(لُغْزٌ أَمْ رَمَزٌ ؟)

قَبْلَ أَنْ أُمْسِكَ بِالرُّمَانَةِ وَأُقَلِّبَهَا عَلَى كُلِّ وَجْهِ: كَانَتْ رُمَانَةً.

السَّفَرَجَلَة

تُسَمِّيهَا وَنَتَكَّرُ لِحَمِّهَا قَبْلَ تَوَعُّلِ لِسَانِنَا فِي لُزُوجَةٍ لُبِّهَا. نَقْضِمُهَا وَنَتَذَمَّرُ؛ رُبَّمَا لِمَقَارَنَةِ بِالتَّقَّاحَةِ. كَأَنَّهَا طَفْرَةٌ
الْجُدْعُ؛ مِنْ خَشَبٍ طَرِيٍّ. لَا هِيَ مِنْ عَائِلَةِ السَّكَّرِ فَتُسَكَّرُنَا؛ وَلَا هِيَ مِنْ مَدْرَسَةِ الْمَاءِ فَتَرْوِينَا. تُذَكِّرُنَا
بِالنَّقْصَانِ فِي كُلِّ الْمَوَازِينِ، فَتُنْغْرِفُهَا فِي مَا يَنْقُصُهَا. تُذَكِّرُنَا بِالْغَصَّاتِ الْمَوْشِكَةِ، وَبِاللَّحْمِ النَّيِّ فِي كَهُوفِ
السَّلَالَةِ، فَنَوَاجِهُهَا بِاكتشاف النَّارِ.

زَادَتْ سَفَرَجَلَاتُنَا، هَذِهِ الْأَعْوَامَ، سَمَادًا وَمَاءً؛ فَلَمْ نَعُدْ إِلَى مَقَارِنَتِهَا بِرُكْبَاتِ الْجَدَّاتِ.

البلحة

عن البلحة أنكلم، لا عن التمرة؛ عن أصغر زورقٍ مغلق، يختزن الصّيف، ويحتكر ألوانَ الخريف، مُحَمَّلاً
بعسلٍ حامضٍ وجُنْدِيٍّ قَتِيلٍ.

وهذه التي تضيق باسمها

كُلُّ حَلْوٍ يَنْتَنِي وَيَمَانَعُ؛ كُلُّ حَلْوٍ يَتَكَسَّرُ. لَكِنَّهَا الْمَسْتَلْقِيَةُ أَبَدًا، مَرْسَلَةٌ نَدَاءَهَا فِي صَمْتٍ، عَارِضَةٌ حَلَاوَتِهَا فِي
اسْتِرْخَاءٍ. قِيلَ إِنَّ حَوْرِيَاتِ الْجَنَّةِ يُشَبِّهَنَّهَا، لِقُوَّةِ فِي الضَّوِّءِ تَكْشِفُ الْأَحْشَاءَ!
لا يذهب إليها اللسان؛ تدقُّ على شهوتهِ بلا موعد، وتُغْرِقُهُ فِي زَلَّةِ الْحَرِيرِ: هَكَذَا تَضِيقُ بِاسْمِهَا التَّمْرَةَ.

في زوايا الشوارع

مَنْ تَكَثَّرَ فِي الْغِيَابِ، وَمَطَالِبَهُنَّ الْقَلِيلَةَ؛ بِبَقَايَا طَنِينٍ تَحْتَ الْجِلْدِ، وَنَسِيحٍ عِنَاكِبَ عَلَى الْعُنُقِ؛ بِالْوَانِ
مَنْتَرَجَّةً، وَقُلُوبٍ أَكْبَرَ مِنْ صَدُورِهِنَّ؛ تَفَاجُنَّا حَبَاتُ الزَّرْعُورِ، شَاحِبَاتٍ، بِحُدُودِ حَجَلِي، وَهُنَّ يَدْخُلْنَ الْمَدِينَةَ.

كلام خريف

في البدء كانت شجيرة شوك، ثم اكتسبت اسم سدرة. مَنْ يَفْهَمُنِي إِنْ تَكَلَّمْتُ عَنِ النَّبِقِ؟

- ما فائدة النَّبِقِ؟

- ما فائدة السِّدْرَةِ؟

- كلام خريف...

(قُلْتُ: "في البدء" ... ولم أنكلم عن يمين العرش، حيثُ سدرَةُ المنتهى.)

ذاكرة قديمة

لا علاقة لي بالعناب (أفصِدُ عِلَاقَةً قَدِيمَةً فِي أَرْضِ هَيَّاتِ الْقَصِيدَةِ) ثُمَّ اكْتَشَفْتُ نَاضِجًا فِي أَرْضِ أُخْرَى.
هَذَا يُطَلُّ فِي سَلَّةٍ، فِي زَاوِيَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ...

أُمْسِكُ بِحَبَّةِ عَنَابٍ، أَفْلِقُهَا بَيْنَ ضِرْسَيْنِ، وَأَتَخَلَّصُ مِنَ النَّوَاةِ، بِذَاكِرَةِ إِنْسَانِ الْكَهَوفِ.

عن موت الشَّعْر

حتى هذا اليوم، مازالوا يصيحون بين يقطعةٍ وأخرى: " يجب على الشَّعْر أن يكون للجميع " (ربما ليؤبئنه الجميع!) لكنَّ القصيدةَ مازالت تُنكرُ وجهها في مرآة الرغيف؛ تدخل السوقَ مع الجميع وتخرج بسلتها فارغة (ربما إلى أن يموتَ حاملُ السلَّة!) فلننترُكها تُجازف بتأملٍ موتها المتجدد، في دَعَاٍ وصمت، بلا صلاةٍ أخرى غيرِ توحيدها بما لا ترى، وبما يجعلها فضلةً نزيدُ الخواءَ بالخواء؟ ربما تُطلُّ القصيدةُ، عندئذٍ، عاريةً لا يسندُها إلا خاؤها؛ بينما تلمع اللغَةُ؛ تمامًا كما البروق الأخيرة في مقابر الأفيال.

أحلى قصيدة

عافِنَا اللَّهُمَّ وارحَمْ ضعفَنَا،
عافِنَا إِنْ لَمْ تَكُنْ ثالِثَنَا،
واغفِرْ لَنَا،
هوذا ألقى بنا،
وسواسُك الخنَّاسُ،
في أحلى قصيدة

المرأة

لغة؛ كي نُقِلَ يوماً.

كي نبقى.

لغة؛

كي نفنى...

القصيدة

قلمي طفلاً
يلهتُ بين يديّ،
وقصيدته
طائرة ورقية
كلماتي،
في سرداب الظلمة والصمت،
خاتمُ ياقوتٍ؛
في إصبعٍ ميت.

فالتة الأهواء

يا للشعر
يهلل للمرأة
في لغة،
يستجمعها قلم؛
تأتي بالمرأة أجزاء.

(صياد
يبري نشاباً،
وسلوقي
في خدمة سيده!)

فيما تبقى المرأة كاملة الأعضاء؛
تساكن غابتها في الليل، وفي الضوء
تراقب طفلتها فالتة الأهواء.

سجع كُهَان

أَسْعِفْ عَيْنِي الْكَلِيلَةَ حَتَّى تَرَكَ. تَجَلَّ كَيْ أَعَابَيْكَ وَلَوْ بِالْقَلْبِ مَتَهَادِيًا أَشْهَى مِنْ غِيْمَةٍ تُجَدِّدُ سَرَّهَا
فِي حِمَاكَ. صَرْتُ جَذَعًا يَزْدَادُ بِيَّاسًا وَأَنَا الْمَفْتَرِضُ تَحْتَ صَوْتِكَ وَصَدَاكَ. تَجَرَّحْتُ حَنْجَرَتِي مِنَ النَّدَاءِ وَلَسْتُ
أَحْظِي بِرَجْفَةٍ تَقُولُ إِنِّي أَرَاكَ.

تَوَسَّطُ إِن كُنْتَ عَابِرًا لَدَى أَنْثَى الْغَيْومِ تَطَّلُ عَلَى دُنْيَاكَ. أَعْنِي بِإِشَارَةٍ لَا تَكُونُ إِلَّا لِي كَيْ أَنْقَلَهَا إِلَى
غَيْرِي وَأَغْرَسَهَا بِاسْمِ هَوَاكَ. وَجَّهْ خَطَايَ إِلَى صَوِيٍّ حَتَّى أَسِيرَ مَطْمَئِنًّا إِلَى سُهُولِكَ وَذُرَاكَ. تَنْقِصْنِي الرُّؤْيَا مَذُ
طَوَّقَنِي الْغَيْبُ وَوَسَّعَ السُّؤَالَ فِي ثَغْرَةِ الْإِنْتِهَاكَ.

وَقَرَّ نَارَكَ لِمَنْ نَافِقُوكَ خَوْفًا وَخَاطِبُنِي بَرَقَةً وَبِهَاءً. أَنْتَ الَّذِي أَفْتَرِضُ فِيكَ كَرَمِي وَمَائِي، قَشَرْتَنِي
وَلِحَائِي. بَتُّ لَا أَرَى إِلَّا إِذَا لَمَسْتُ مَنْ أُحِبُّ فِي عَمَقِ لَحْمِهِ الْمَهْتَرُ بِرَجْفَةِ الْإِنْتِشَاءِ. فَهَلْ أُبْحَثُ عَنْكَ فِي
لَوْلَا قَلْبِهِ قَادِحَةً مِنْ مَلْمَسِي الْمَتَوَاضِعِ جَلَدَ ضَوْئِهَا بِثَمَارِ الْحَيَاءِ؟

غَادَرَنِي الْحَبُّ وَصَرْتُ أَلْهَيْتُ فَلَا أَرَى فِيهِ إِلَّا مَا تَلْمَسُهُ الْيَدُ وَمَا تَحْكُهُ الْأُورَاكُ. فَاتَنِي مَا فِي الرُّوحِ
مِنْ مَعْنَى، هَيُولَى تَذْهَبُ فِي ضِيَائِكَ وَفِي سُرَاكَ. رَكَضَ نَحْوِكَ جُنَاةَ الْكُرُومِ وَبَقِيْتُ جِدْوً كَرَمَتِي لَا أَرَاكَ. لَوْ
جَمَعْتُ مَقَادِحِي كَوْمَةً مَا عَادَلَتْ زَلَّةً مِنْ حَصَادٍ مَنْ سَبَقُونِي وَأَعْلَنُوا اصْطِفَاءَكَ وَرُؤَاكَ.

هَبْنِي مَا يَلْمَنِي بَعْدَ هَذَا الْبَلَاءِ كِي أَصْطَفِيكَ بَعْدَ طَوْلِ بِلَاءٍ. هَبْنِي مَا يَجْمَعُ كُلَّ بَذْرَةٍ شَتَّتَهَا الْبَعْدُ
وَهِيَ تَدْعِي قَرَبَهَا مِنْكَ وَصَحْوَهَا لَوْ تَرَكَ. لَسْتُ أَخْشَاكَ حَتَّى يَرْكُضَ بِي الْخَوْفُ مِثْلَمَا فَعَلَ بِالذَّنَابِ الَّتِي هُنَا
وَهِيَ نَفْسُهَا، رَيْمًا، الَّتِي سَوْفَ تَرَاهَا هُنَاكَ.

لَسْتُ أَخْتَبِرُكَ غَيْرَ أَنِّي قَاطِنٌ فِي نَقْطَةِ التَّسَاوِي بَيْنَ رَغْبَةٍ تَتَوَسَّطُ شِكْوَاكَ وَنَجْوَاكَ. لَسْتُ أَخْتَبِرُكَ
غَيْرَ أَنِّي صَرْتُ أَبْعَدَ مِنْ أَنْ أُسْتَجِيبَ لَخَوْفِي، فَأَنْصَاعَ لِإِزْتِي، أَوْ أَشَدَّ الرِّحَالِ مِتَاجِرًا بِالرِّيحِ، حِينَ لَا تُجْدِي
خَسَارَةً، قِيلَ كَتَبْتَهَا نِهَائِيَةً لِلْأَهْثِينَ هُنَا، بَعْدَ طَوْلِ عِرَاكَ.

الْمَوْسِيقَى الَّتِي أَبْدَعْتَهَا بِاسْمِكَ مَازَلْتُ تَهَزِّنِي وَقَدْ وَدَعْتُ فِي آخِرِ مَفْتَرَقِ مَوْسِيقَى وَرَعْتَهَا بَيْنَ زَقَزَقَةٍ
وَتُغَاءٍ. كَمْ حُرُوبٍ تُدَارُ بِاسْمِكَ؟ ذَبْحٌ، وَقَتْلٌ، وَخَيْرٌ عَمِيمٌ، وَغَالِبًا مَا يُقَالُ إِنَّ ذَلِكَ قَدَرُ الْأَحْيَاءِ. كُلُّهُمْ يَرْكُضُونَ
بَعْدَ مَادِبِ الدَّمِ يَنْتَلُونَ عَلَيْكَ مَا عَلَّمْتَ، لَكِنْ فِي لِحْظَةِ الْإِنْتِهَاءِ.

عَلَّقْتَنِي جَارْتِي عَلَى مَشَانِقَ مَا احْتَطَبْتَهَا بِلِ سَقَطَتْ عَلَيْهَا مِنْ بَسْتَانِكَ وَهَلَّتْ عَلَيْهَا مِنْ مُجْتَنَاتِكَ.
أَعْلَنْتُ شَنْقِي قَبْلَ أَنْ أُشْنَقَ بِحُنُقِكَ، أَوْ أَغْوَصَ فِي عَسَلِ أَنْهَارِكَ بِلَا دَبْقٍ، بِلَا نَحْلِ وَأَشْوَاكَ، فِيمَا طَيُورُ
مَادِبِكَ تَنْزِلُ فِي صَحْنِي وَلَا تُشْعَلُ حَوْرِيَّتِي بِطَبِخٍ وَجَلِيٍّ أَوْ إِثْمِدٍ وَسِوَاكَ...

خُضَّنِي، خُضَّنِي حَتَّى تَفَرَّ طِينَتِي وَتَتَوَوَّبَ إِلَى ذِكْرَاكَ، أَضْفُ إِلَيَّ هَالَةً مِنْ نَوْرِ صَمْتِكَ أَوْ مِنْ
ضَجِيحِ وَعِيدِكَ الْفَنَّاكَ. تَعَبْتُ مِنَ السَّيْرِ فِي الْمَسَالِكِ الْمَعْبُودَةِ بِالْبِغَالِ وَبِالْعِبَادِ تَرْكُضُ مَهْيَأَةً كَالْأَفْلَاكَ.
وَيُقَالُ لَنَا مِيزَانَاكُمْ بِالْمَلَكَةِ الَّتِي تُحَاكِمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَمُطْلَقُ الْحُكْمِ هُوَ أَنْتَ وَنَحْنُ دَمِيَّةٌ تَلْهُو بِهَا
يَدَاكَ.

أَعْنِي،

أَعِنُ ذِرَاعِي الْكَلِيلَةَ؛

مَلَلْتُ الطَّرْقَ عَلَى الْأَبْوَابِ، وَأَنَا فِي طَرِيقٍ، خَلَّيْتُهَا أَنْتَ، فَوَجَدْتُهَا تُحِيلُنِي إِلَى بَشَرٍ سِوَاكَ...

محمد علي اليوسفي

هل جئت تسأل عني؟

لقد متُّ منذ زمن.

لكنَّ الحركةَ الكامنةَ في دولةٍ تعقبُ دولةً، حقَّقتُ لي رغبتِي في الحياة...

سيرة

* محمد علي اليوسفي، من مواليد مدينة باجة التونسية في 3 مارس 1950

* متزوج وله أنسي ودانية.

* درس المرحلتين الابتدائية والثانوية بتونس ثم سافر إلى الشرق العربي حيث أتم دراسته الجامعية في جامعة دمشق وتخرج في

قسم الفلسفة والعلوم الاجتماعية.

* تابع الدراسات العليا في الاختصاص ذاته بالجامعة اللبنانية خلال الحرب الأهلية.

* وفي الأثناء مارس الترجمة والكتابة والصحافة الثقافية في أبرز الصحف والمجلات السورية واللبنانية والفلسطينية.

* عاد إلى تونس ليستقر بها بعد عشرين عاما أمضى ثمانية منها في جزيرة قبرص.

* أعماله المؤلفة:

أ- في الشعر:

* حافة الأرض، دار الكلمة، بيروت، 1988.

* امرأة سادسة للحواس، دار الطليعة الجديدة، دمشق، 1998.

* ليل الأجداد، وزارة الثقافة السورية، دمشق 1998.

* ليل الأحفاد، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2008

ب - في الرواية:

* توقيت البُكَاء [جائزة الناقد للرواية] رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1992

* شمس القراميد، [جائزة كوما: الريشة الذهبية] دار الجنوب، تونس، 1997 * طبعة ثانية، دار الفارابي، بيروت، 2009

* مملكة الأخيضر، دار الطليعة الجديدة، دمشق، سوريا، 2001

* بيروت ونهر الخيانات، دار الفارابي، بيروت، 2002

* دانتيلا، دار الفارابي، بيروت 2005.

* عتبات الجنة، دار الفارابي، بيروت، 2007

ج - في النقد:

* أبجدية الحجارة، بيسان برس، نيقوسيا، قبرص، 1988.

* أعماله المترجمة:

أ . شعر:

* حرية مشروطة، أوكتافيو باث، الدار العالمية، بيروت، 1983.

* مدائح النور، مختارات من الشعر اليوناني، دار الملتقى، ليماسول، قبرص 1994.

* كنتُ شجرة وتكلمتُ بستانَ حروف، القصائد الشرقية لأوكتافيو باث، دار أزمنة، عمّان، 2008

ب - رواية:

* حكاية بحار غريق، غابرييل غارسيا ماركيز، دار ابن رشد، بيروت، 1980

- طبعة جديدة، دار ورد، دمشق 2008

* خريف البطريق، غابرييل غارسيا ماركيز، دار الكلمة بيروت، 1981

- طبعة جديدة، دار المدى، دمشق 2005.

* البابا الأخضر، ميغيل أنخل استورياس، دار التنوير، بيروت، 1981

- طبعة جديدة، دار ورد، دمشق 2008

* ناراياما، شيتشيرو فوكازاوا، دار التنوير، بيروت، 1982

- طبعة جديدة، دار ورد، دمشق 2008

* مملكة هذا العالم، أليخو كاربنتييه، دار الحقائق، بيروت، 1982

- طبعة جديدة، دار ورد، دمشق 2008

* البيت الكبير، ألفارو سيبيدا ساموديو، دار منارات، عمان، 1986.

* ليلة طويلة جدا، كريستين بروويه، دار الجنوب، تونس.

* بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة، داي سيجي، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، 2004

* الفتى أصهب، جول رونار، مشروع "كلمة" للترجمة، أبوظبي، 2012

ج - سيرة :

* المنشق، سيرة نيكوس كازنتزاكي بقلم زوجته، دار الآداب، بيروت، 1994.

د . دراسات :

- * بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ماكس هوركهايمر، دار التنوير، بيروت 1981
- * بلزك والواقعية الفرنسية، جورج لوكاش، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس 1985.
- * نظرية الدين، جورج باتاي، دار معد، دمشق 2007
- * لو كان آدم سعيداً، إميل ميشال سيوران، دار أزمنة، عمّان 2008

هـ - سينما:

- * الثورة الفرنسية في السينما، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2003
- * قرن من السينما الفرنسية، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2005

و . رحلات

- * من تونس إلى القيروان، غي دي موباسان، دار المدى، دمشق، 2004

ز - تحقيقات

مجزرة صبرا وشاتيلا ، آمنون كابلوك، الإعلام الفلسطيني 1982

* العديد من النصوص المترجمة (أشعار، قصص، دراسات) في الصحف والمجلات العربية منذ السبعينات وحتى الآن، لم أسع إلى حصرها.

العنوان الإلكتروني:

yousfimedali@gmail.com

yousdali@yahoo.fr

مدونة الكاتب

alcarma.wordpress.com